مُناقشات

حول قصيدة : ((لماذا ؟))

حين اتكلم عن مدى الاصالة الفنية التي تميز بها شعر فدوى طوقان ، يجدر بي ـ موازنة ـ ان اتصدى لما وصلت اليه حال الشعر من ربكة وتخبط اعشى ولاادرية ، في هذه الايام التي تخافت فيها صوت الشعر الصائت ، واستحال الى مجرد همس مبحوح فاتر اشفق معه المخلصون ، عليه من ان يتلاشى ويبور ويمسي مجرد اصداء هزيلة ميتة ! وطبيعي اني لا يمكن ـ وانا اتعرض لهذه الناحية ـ ان اعني باية حال من الاحوال ، الافذاذ من شعراء الجديد او فدوى بالذات وهي ممن في طليعتهم ، وانما اردت ان اعني هذا الفيض الخضم الذي اتت به قرائح متشاعرين وملأت به الزوايا والاركان فجرت بذلك لعنة العصر على الشعر ، وقديما قيل ((الشعرُ صعب وطويل سلمه !)) ، وحين حسب هذا اللاشعر على الشعر اضطربت مقاييس الفن الشعري العتيدة، وكادت ان تستعجم الاذواق حين اختلطت العينات : الغث والسمين والهزيل والمكين ! حتى انك ـ وانت تقرأ احدى هذه القصائد البوائس ـ لتجد الفاظا متناثرة ضغطت مقسورة في عبارات غير مؤتلفة : لا تربطها وحدة المعنى ولا يقربها اي شيء من التفكير الواقعي المسلم به ، ولعلها هذه هي مصيبة الشعر اليوم : الشعر واللاشعر تشاكل وجهاهما وتشابه لوناهما وتناثما .. ولا مجير غير الانصاف الضميري ، وغير الميزان الذوقي السليم . اننا نريد الشعر الحقيقي : حرا او تقليديا ، الشعر البديع الرائع الذي يترجم العواطف ويسمو بالصور : يرسمها بريشة عبقرية ملهمة ، الشعر الذي ينز قوة وتمكنا ، بيد اننا لا نريده طفيليا ضاويا متعثرا ! كان علي ان اذكر كل هذا وانا اتهيأ لكي اتعرض لرائعة جديدة من روائع فدوى : قصيدة (لماذا ؟) المنشورة في عدد اذار الممتاز من مجلة الاداب . القصيدة كانت رائعة حقا : رائعة لانها استقطبت كل معالم قصيدة الرثاء ، تلك المعالم التي يمكن ان تنحصر في جوانب ثلاثة : اولها اظهار الاسى والتفجع على اخيها الفقيد ،وثانيها الاشادة بمزاياه الفخمة ، وثالثها تبرير فداحة الفقد نفسيا . كل ذلك جاء مشفوعا بجو المأساة البكائي القاتم الذي املته ضراوة التجربة الشعورية البالغة المرارة . تبدأ القصيدة وتنتهي بروح اسوانة يتشعشع منها احساس الالم .. الالم الخالد ، الالم الذي عظمه فردريك نيتشه ، فيلسوف الحرمان والالم ! ألم شاعرة هولها استشعار بالافتراق الابدي عن شخص عزيز ، شخص غير عادي بنظرها . لقد سرحت سمفونة الاسى طليقة وانية النغم نفثت فيها الشاعرة كل طاقاتها الاسفية والدرامية ، فجاءت مشاعرها جارية مع الطبع ، غير متكلفة ولا متصنعة ، اذ ان كل انسان معرض لان يمر بمثل هذه التجربة الضانية القسوة ، ولكن ليس لكل انسان القدرة على التعبير الواضح عن رؤى الحزن وتصوير مدى عمق الفراغ الذي يتركه الفقد ومن ثم القدرة على الاستثارة واستحصال الانفعال . لقد كانت القصيدة مثلا نادرا من امثلة قصيد الرثاء في شعرنا المعاصر ، ولا شك في ان ثمة اكثر من سبب يشج فدوى بسالفتها خالدة الذكر : الخنساء شاعرة الرثاء العربية الاولى ، هي تظهر اساها ثم هي تستقصي حقيقة الفقد فتفلسف الموت ! والفلسفة الخام هذه عبرت عنها بهذه البساطة : ((رويدك كانت حياة بالف حياة . وانعبرت في سراها القصير كخطف الحلم . حياة امتلاء ، حياة احتدام وعنف..)) وهي تعرض شلة من صفات فقيدها الاسطورية ، فحياة هذا الفقيد ((بالف حياة)) وانه كان متساميا مترفعا ((يهوى عناق الحياة على المرتقى)) و ((تخلبه الشمس عشقا ..)) ثم تتحدث عن نهاية الانسان المتفتح لنور الشمس والذي تحدر الى هوة الضياع الابدي ، حيث الظلام ، وحيث ((دبيب المساء)) يلاقي مصيره خابي النار ذاوي الروح !

وفي المقطع الثالث تبدأ مرحلة التبرير النفسي ومحاولة تبرير العاطفة الحانقة المضطرمة : ((اقول لقلبي اكتمال هو الموت .. تتويج عمر .. وفيض امتلاء .)) بهذا المنطق تحاول فدوى تبرير الموت ، وواضح ان التبرير ـ كما قرر علم النفس ـ هو حيلة من حيل الترويح النفسي. وبعد كل ذلك كان السؤال الرهيب الذي نقضت به كل المقدمات ((لماذا يموت ؟ لماذا يموت ؟)) . هكذا جاءت القصيدة بسيطة رائعة مستكملة.. وهكذا كانت فدوى فيها استاذة وشاعرة رثائية ضخمة العطاءات !

بغداد — كاظم الوائلي

حول قصيدة ((الشخص الثاني))

في عدد نيسان الماضي من الاداب قصيدة للشاعر العراقي سعدي يوسف تحمل عنوان ((الشخص الثاني)) ، وهي مهداة الى الشاعر الأنكليزي لورنس داريل . انها تحمل نفس الملامح تقريبا ، التي لقصائد سعدي يوسف الاخرى . واعتمد فيها على السرد والتزمين الروائي،رغم دوران القصيدة في نفس خط قصائد عديدة للشاعر كتبها من قبل.وهي، جميعا ، تنفرد بعدة خصائص مشجعة : الحركة التي تلف اجزاء الواقعة الشعرية في قطعة واحدة تمنح القصيدة ثقلها وتوترها وصلابتها مما يرفد الشكل بحياة فائرة (مع ان سعدي يوسف يستمد ذلك من مواضيعه غالبا) تقرب القصيدة من حدود التجربة العميقة المهيمنة على وجود الشاعر الحديث : تجربة اكتشاف العصر .

لست هنا بصدد الكتابة عن شعر سعدي يوسف على كل حال . ولكنني اردت ان اقول ان قصيدة الشخص الثاني مقتبسة ، ولاقل منقولة من قصيدة « Je est un autre » للشاعر لورنس داريل نفسه ، وعنوانها الفرنسي مأخوذ من قصيدة لرامبو . اما القصيدة نفسها فمنشورة في قصائد داريل المختارة ، او ، وهذا الاسهل ، في العدد الاول من سلسلة « Penguin Modern Poets » وهي مجموعة قصائد مختارة لكل من داريل واليزابيث جننغر وآر.اس. توماس .

في القصيدتين اوجه شبه غريبة ، والتجربة منسوفة القاعدة ، حيث تجري تجربة داريل في اوربا ، بينما اعاد سعدي يوسف تركيب اجزائها من جديد في مدينة الجزائر ، حيث يعيش الان .

المقطع الاول من قصيدة داريل هو :

انه الرجل الذي يسجل ملاحظاته ،
المشاهد ذو القبعة الطويلة السوداء ،
يخفي وجهه في حافتها ،
وانه في ثلاث مدن اوروبية
قد راقبني فيما اراقبه بدوري .

والحادثة الشعرية والقطاع الزمني ونوع الحركات في الابيات الماضية هي نفسها في المقطع الآتي ، وهو الاول من قصيدة ((الشخص الثاني)) ، وان صيغت بتفصيل مفكك (والتفاصيل نفسها غير مدروسة جيدا ، وهي مرتبطة بباقي التفاصيل في القصيدة باوهى الاواصر) :

في المطعم الشتوي ، اصغيت الى سعلته الاولى
راقبته يمسح بالمنديل كفيه
ويكتم الضحكة في اغماض عينيه

راقبته ، يلحظني للمرة الاولى
يسخر مني ...
دون ان يسمعني حرفا
او يوقظ الصمت الذي اغفى
والمقطع الثاني من قصيدة الشاعر الانكليزي ، وهو :
زاوية الشارع في « بودا » وبعدها
قرب محطة البريد لمحة
من اذيال معطفه التي تختفي
اعطت نفس الانطباع ... عن المتجسس عليه ،
عن الضيق في الحنجرة .
يدركه البيتان الاخيران من مقطع « الشخص الثاني » الاول :
كان زجاج المطعم الشتوي مبلولا
وفجاة ..
غادره بالمعطف الباهت ملتفا

ولا شك انني لا اريد المضي بالمقارنة حتى النهاية ، بل اكتفي بايراد باقي مقاطع قصيدة داريل – تجنبا للاطالة – والمح الى الصياغة الحادة والجافة والمكتفية بالتشخيص الشعري :
Poetic Charactarization

في قصيدة داريل ، وهي من مميزات هذا الشاعر العظيم وتبرز بوضوح في قصائد ديوانه « شجرة العطالة » على الاكثر ، ويشاركه فيها من الشعراء الانجليز المعاصرين كنغزلي اميس ، ولكن لذة بالسرد لذاته ، وجون هولواي ، وان وسط كينونة غريبة وشفافة ، وبعض قصائد جون واين واخرين من شعراء « الحركة » في انجلترا .

ولكن سعدي يوسف ، وهو الشاعر العربي الحار ، لوى قوادم ابياته باستغراق وتصميم نحو خليج عريض من العواطف الشائعة ذات الكينونة المجانية ، والتي غالبا ما يعتمد عليها الشاعر العربي في تكوينه الشعري ، ولا يدري مواضعها الحقيقية بل يلتف باكبر عدد من الاجنحة الانفعالية محاولا ان يطير الى الفراغ . ولا يدخل تحت هذا البرنامج المضطرب انفعال سعدي يوسف مطلقا ، واقصد المقطع الثالث من « الشخص الثاني » ، وهو قصيدة سعدي يوسف الحقيقية ، وفيه حبه الاصيل وشوقه الانساني المحرق لوطنه وهو بعيد عنه ، اغنية صميمية ذات حركات متقنة وشجية تزخر بصوت الدخيلاء والريح والمطر ومظاهر الطبيعة واشيائها الاخرى التي تميز شعر سعدي يوسف باكمله . وانا اطلب منه ان يتقبل تقديري العميق لشعره ، واورد الان باقي قصيدة داريل :

وذات مرة ايضا قرب « السين »
والمياه ارض متحركة من النجوم ،
كان قد اختفى حين بلغت الباب ،
ولكن ثمة على الرصيف كان يحترق
سيغار من سيغاراته المالوفة .
اللقاء على الدرج المظلم
حيث التيار يجري صافيا كالنول :
خيانتها هي ، قبلاتها التي
كان شاهدا عليها جميعا : غالبا ما
اسمعه يضحك في الغرفة الاخرى .
انه يراقبني الان ، وانا اشتغل الى وقت متاخر ،
باعثا الى الحياة بقصيدة ، وعيناه
تشغفان باعتلال « دي نرفال » :
اواه لا يجدي في هذا البيت القديم الاستفسار
من المرايا ، وهي قناعه الذي لا يخترق .

كركوك — سركون بولص

تتمة قصيدة « امتي »

ان يأكل قبل المدخنة
ويصفر قبل القاطرة
وينام على قلب اخيه الانسان
هذا ابد التيجان بأفريقيا
الرؤيا تزحم عينيّ الرؤيا
اتلمس في الادغال وفي صحراء البهو معالمها
اتلمس لا القى الا حبات مسابحكم
حبات مسابحكم
حبات مسابحكم
سبحان الحلم الطيب فوق مداخل أفريقيا

***

الغضب :
في قمة الشمس الصبية أمتي لفقت عمائمها ووثقت العباءه
حضنت مصاحفها وخطت في السهول مضاربا سودا واحكمت البناء
عار الدكاكين ، الارائك والمقاهي والفراندات المضاءه
ومجالس الخمر الذليل وجثة الأنثى واسعار البذاءه
هذي السراويل الوقورة حشوها زيف الخنوع وذلة العيش انحناء
هذي المتاريس المشيدة لم تمد سقوفها يوما الى الضيف احتفاء
متلصصا وقف النهار لدى نوافذها وناح الطبل – بح تشنجا وبكى نداء
أفريقيا رقصت لدقات الدفوف ، تطهرت في نهرها القديس ،
قدمت الذبائح والغداء
وهنا بأحداق السهول تحك امتنا عجيزتها وتلتفع العباءه
مخضوبة المنديل تحجب عن بواصرها الشناعة والدماء
يا خوفها الملعون من مرأى الدم القاني يسيل على حشاياها ويمنعها التضاحك والمواء .

***

أواه ها حلمي يطيش وها أنا متوجه نأيا يطول تعزيا
نسكا سأرقص أشرب الخمر الزؤام ، اسب تاريخي هناك تشفيا
اواه ها خوف النكوص يشل اقدامي ويلجئني اليك مصليا
متنكبا رمحا اطاعن صخرة – لا انتمي ابدا اليك ولا أطيف تخليا
سأظل انبح ههنا حتى يموت توهج الحمى وينطفىء الشباب

الخرطوم — محمد المكي ابراهيم